طبيعة الجغرافية

أ.د. رياض عبدالله احمد
كلية التربية للعلوم الانسانية – قسم الجغرافية
الدراسات العليا / الماجستير
مادة الفكر الجغرافي

المقدمة

ان طبيعة الجغرافية ذات حدود مرنه لا تعرف الاستقرار مما دفع (دوركاين) الى القول (إذا استمع المرء الى الجغرافية يخيل اليه ان جميع العلوم الاجتماعية طوع امره).

لقد رأى (هانز بويك) وهو جغرافي الماني ان طبيعة الجغرافية وموضوعها الذي يتمحور حوله هو القشرة الأرضية والغلاف الحيوي والغلاف الغازي وقد أشار العالم الروسي (شافسكي) في تعريف طبيعة الجغرافية انها علم مستقل تماماً يدرس على سطح الأرض.

وقد أشار هتنر في مقال له (لو درس أحدنا العلوم المختلفة على سبيل المقارنة لوجدنا ان بعضها تتخذ شخصية مادة الدراسة وبعضها الاخر يتخذ بمنهج الدراسة والجغرافية من النوع الثاني التي هي منهج الدراسة.

أذاً العلم هو طريقة قبل ان يكون حقيقة فالطريقة والمقصود بها هنا طريقة البحث هي التي توصلنا الى الحقيقة. والجغرافية كما يراها بعض الجغرافيين هي منهج بحث او طريقة دراسته ويمكن معرفة طبيعة الجغرافية من خلال معرفة موقع الجغرافية بين فروع العلم المختلفة اذ انها ذات طبيعة مميزة تختلف عن العلوم المتخصصة وهذه الطبيعة تنطوي على نقطتين أساسيتين هما: –

أولا: – انها ذات نظرة شمولية ينفرد بها الجغرافي في رؤية الحقائق والعلاقات مجتمعة في أطار المكان ولكن الشمولية لا تعني تجمعها لعناصر متفرقة انما هي خليه تنبض بقوانينها الخاصة التي تشكل طبيعتها وجميع مكوناتها الأساسية وهذا جاء حسب تعريف (بياجيه) أذ يقول ان الجغرافية هي دراسة خليط من الظواهر المتناثرة التي يقوم الجغرافي بتصنيفها والتوليف بينها لتستطيع ان تقدم لنا صورة واضحة ومتكاملة عنها. فالجغرافية ذات فلسفة متميزة تقف على النقيض من العلوم المتخصصة بطريقة النظر الى الأشياء مجتمعتاً وتعد الجغرافية حركة تصحيحية للعلوم المتخصصة وهي تلتقي مع الفلسفة (الجشطالية) الداعية الى اذابه الحواجز الظاهرية وازالتها قدر المستطاع بين العلوم من خلال نقطتين هما: –

1- نظرية المجال الموحد في العلوم من خلال المشروعات المهمة مثل مشروع تكامل العلوم في اسكتلندة والمشروعات الامريكية السبعة عشر لإيجاد التكامل بين العلوم الفيزيائية والبايلوجية والجيولوجية والفلكية.

2- نظرية الوحدة البيئية: - حيث أكد العلماء ان هناك تشابه وتداخل وتكامل بين البيئة فالعوامل التي كانت قائمة مثلاً بين النبات والحيوان قد اخذت بالذوبان بعد الاكتشافات المتعاقبة والتي من شأنها إقرار وحدة عالم الاحياء

هاتين النقطتين السابقتين كانتا حاضرتين في النظرة الشمولية للجغرافية فقد أشار مثلا (اندريه ميكيل) ان الجغرافية العربية في العصور الوسطى كانت تعي مثل هذه الشمولية في الظاهرات الطبيعية والفلكية.

ان معظم العلوم يتخصص في مجموعة معينة من الظاهرات كالنبات والحيوان والمياه والفلزات لكن (الجغرافي لا يدرس هذه الظاهرات لذاتها بل ينظر اليها على انها أجزاء من كل توضح وتفسر شخصية المكان) لان المكان هو الشيء الذي يتطلع اليه الجغرافي باستمرار على الرغم من ان الجغرافية تدل على ان المكان هو موضوعها الى انها لم تشارك غيرها من العلوم الأصولية أي اقتسام عناصرها وانما اختصت بدراستها مجتمعتاً بطريقة متفاعلة ومتكاملة حيث انها جمعت بين المكان والانسان في منظومة واحدة اخضعتها للنظرة الشاملة نفسها التي تميزت بها عن العلوم الأخرى .

يعبر (ميكيل) عن هذا الفكر بقوله ان الجغرافية لا تدخل في قائمة العلوم المتخصصة بل ترتبط بها جميعاً.

ان الجغرافية تتخصص في عدم التخصص وقد وصف ذلك لأنه هو المتخصص الذي يضرب بحرية في العلوم المختلفة والذي يربط الظاهرات كلها (الأرض، الناس، والإجراءات المادية، والحيوية) والتي انتجت في الجغرافية ما يعرف (بفكرة الإقليم أو الفكرة الإقليمية).

يرى (كانت) ان الجغرافية كما هي حال التأريخ تختلف اختلافاً اساسياً عن العلوم الأخرى فالجغرافية تدرس جميع الظاهرات المنتظمة وفق ابعادها المكانية وبمعنى اخر انها تدرس قطعة من المكان بكل ما فيها من ظاهرات في زمن محدد بينما يدرس التأريخ جميع الظاهرات المنتظمة وفق ابعادها الزمانية بمعنى اخر انها تدرس قطعة من الزمن بكل ما فيها من ظاهرات في مكان محدد.

ثانياً:- انها نظرة تكاملية تنظر الى العلاقة بين الانسان والبيئة أي انها تنظر الى المكونات الحية وغير الحية مجتمعتاً كوحدة متكاملة وفقاً لقوانين طبيعية واحيائية وهذا يعني ان الجغرافية تطبق (المنظار المزدوج) أي انها تنظر الى الصورة الشاملة والكاملة للمكان والواقع انه في الخروج الى الطبيعة يمكن ان

نجد سلامة وجه نظر الجغرافي حيث تشهد الوحدة والانسجام بين الطبيعة والانسان والترابط بين الظاهرات الطبيعية والبشرية وتدرك ان التصاق الأشياء وعلاقتها ببعضها هي حقائق والجغرافي وحده هو الذي يقوم بدراسة هذا الاتساق وتلك العلاقات بين الظاهرات من خلال ما تقدم ظهر مفهوم اخر في الجغرافية هو (التقسيم الى جغرافية طبيعية وبشرية) ان هذا التقسيم يتنافى مع هدف الجغرافية الأساسي في الربط بين المظاهر الطبيعية والبشرية ومحاولة ابراز جانبي الحقيقة في صورة واحدة.

وقد أشار الى هذه الخطوة (هربرستون) حينما وصف هذه الظاهرة أي ظاهرة تقسيم الجغرافية بأنها جريمة تؤدي الى قتل العلم ومن هنا حاول بعض الجغرافيون الى إعادة النظرة الشمولية للجغرافية من خلال الدراسات الإقليمية التي تخلص الجغرافية من ورطة الازدواجية ذلك بأن الإقليم هو بمثابة الوعاء الذي يشمل مختلف الظواهر وفيه يمكن تحليل التداخل بين المظاهر الطبيعية والبشرية وعلى هذا يصبح الإقليم بؤرة الاهتمامات الجغرافية وميدانها التخصصي.

ومما سبق يمكن ان نلخص بعض النقاط الاتية: -

1- يتفق الجغرافيون على ان الجغرافية هي علم المكان.
2- لا يختلفون في أهمية العنصر البشري في المكان.
3- إذا ما أهملنا العنصر البشري دخلت الجغرافية فوراً في نطاق العلوم الطبيعية.
4- أذا ما أهملنا العنصر الطبيعي دخلت الجغرافية فوراً في نطاق العلوم الإنسانية.
5- أذاً الجغرافية هي العلم الذي يوحد بين الظاهرتين المختلفتين (الطبيعية والبشرية) في المكان من وجهة نظر إنسانية وهذا هو الوضع الطبيعي للأشياء.
6- الخروج على هذين المبدئين يؤدي الى الخروج من ميدان الجغرافية الى ميدان اخر.
7- الالتزام بهاذين المبدئين تأكيد لهوية الجغرافية ومبرراً لوجودها.

ان النقاط السابقة تؤكد على ان الجغرافية هي علم تركيبي أي انها على خلاف العمليات التحليلية في العلوم الأساسية. ان تقسيم الجغرافية الى طبيعية وبشرية يبدد النظرة الشاملة وبالتالي يمزق وحدة المنظور، وليست ثمت ما يحمل الجغرافية من الشرود سوى الالتزام بمبدأ التكامل والشمولية.

فالتقسيم الى طبيعية وبشرية هو من اجل التحليل والدراسة فقط لان الجغرافية كالعملة لها وجهان أذا مسح أحدهما فقدت العملة قيمتها، وقد ذكر (دي لا بلاش) ان الجغرافية فن ما وصلت اليه الطبيعة أي انها نظرة تحليلية تركيبية لا تخصصية لأنها تصل ما فعلته التخصصات الاكاديمية الضيقة.

ان مشكلة الجغرافية لم تتوقف عند التقسيم وانما وصلت الى المادة الجغرافية التي ترامت أطرافها الى حد بعيد وأصبحت هناك فروع تخصصية في (الجغرافية الأصولية).

ان طبيعة الجغرافية وعمل الجغرافي خلال الفروع التخصصية تهدف الى (الكشف والفهم والتوضيح) لمظاهر سطح الأرض وفي ممارسة عمله الجغرافي يهتدي بثلاثة مفاهيم وعلامات بارزة هي: -

أ-مفهوم العلاقات الزمكانية: - أذ ان كل ما يحدث في مكان وزمان وجميع الظاهرات سواء كانت بشرية او طبيعية تتطور عبر الزمن والجغرافي يهتم بالعمليات التي اثمرت ظاهرة اليوم ويهتم بالتغيرات التي تنتاب هذه الظاهرات من مكان الى اخر فالجغرافي أذاً يهتم بالتوزيعات المكانية والاختلافات المساحية والتغيرات التي تطرأ على الظاهرات الجغرافية.

ب- مفهوم العلاقة بين الانسان والأرض: - يكشف الجغرافي ويحلل العلاقات التي تواجه الانسان والبيئة الطبيعية وتؤثر البيئة بشكل لا يمكن اهماله في نشاط الانسان وثقافته وكذلك يؤثر الانسان في بيئته وهذا التأثير المتبادل يمثل جزءاً من الدراسة الجغرافية.

مفهوم الوحدة البيئية (أو الإقليم): - تتكون البيئة من عناصر متنوعة مثل (سطح، تربة، مناخ، نبات) ومناطق استقرار (بشرية) وهذه العناصر لا تتنصل بل تتداخل وتكون كلاً مميزاً وهو البيئة أو الإقليم.